



وناري بصدري تُحاولُ بالشَّعرِ نَفْسًا ...  
ومَنْ يَمْدَحُ الرَّاحِلَاتِ يَحُثُّ الوُقُوفَ بِوَجْهِ التَّقَالِيدِ حَتَّى ...  
أحبُّكَ أُمِّي  
حَيَاةً  
ومَوْتًا  
وبَعَثًا ...  
ومثلكَ لَيْسَ يَمُوتُ  
ولِكَيْتَهُ سَوْفَ يُرْتَى ...  
سَأرْتَى النِّسَاءَ جَمِيعًا  
لأنَّكَ أَنْتَى ...!

صدر  
للشاعر

- نَزَفَ الحُرُوفَ (شعر)
- أمام المِــرَاةِ (شعر)
- في صحبة الوطن (شعر)
- لا شئَ عندي أخسره (شعر)
- على المكشوف (شعر)
- اكتب تاريخ المستقبل (شعر)
- حزن مرتجل (شعر)
- يوميات ثورة الصبار (مذكرات)

# رِثَاءُ امْرَأَةٍ لِامْحُوتِ

شِعْر  
عبد الرحمن بن يوسف

رِثَاءُ امْرَأَةٍ لِامْحُوتِ

شِعْر  
عبد الرحمن بن يوسف

لجميع العناوين: حسن محمد حسن

دار الشاعر للنشر والتوزيع

دار  
الشاعر  
للنشر والتوزيع

دار  
الشاعر  
للنشر والتوزيع





# رِثَاءُ أَمْرَأَةٍ لَا تَمُوتُ

شِعْر

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْيُوسُفِيُّ

## فهرس

٧	إهداء .....
٩	أُنْظِرْ أَمَامَكَ .....
١٥	أَحَاوِلْ فَهَمَّ عَدُوِّي .....
١٩	أُمَمٌ هِيَ الْأَشْجَارُ .....
٢٧	إِفْرَاجٌ .....
٣٣	لَنْ يَكْتُبَ النُّقَادُ عَنِّي ...! .....
٤١	لَوْ عَادَتِ الْأَيَّامُ بِي ...! .....
٤٧	مَاذَا يُرِيدُ الْيَأْسُ مِنِّي؟ .....
٥١	رِثَاءُ مُحَمَّدٍ .....
٦١	رِثَاءُ امْرَأَةٍ لَا تَمُوتُ .....







زُرِعَتْ بِقَلْبِكَ مِنْ قَدِيمِ الْعُمْرِ ثُمَّ رَوَيْتَهَا بِعَزِيمَتِكَ...!  
فَأَنْظُرُ أَمَامَكَ وَاثِقًا مُتَسَامِقًا  
رَاقِبٌ مَصِيرَكَ وَابْتِسِيمٌ...!  
وَاهْزَأُ بِخَوْفِكَ وَاقْتَحِمُ...!

٢٠١١/١/٤

القاهرة

مساءً

٨،٠٠







































مَاذَا يُرِيدُ الْيَأْسُ مِنِّي ...  
غَيْرَ أَوْهَامٍ تَرَى فِي الْيَأْسِ سَيِّدَنَا  
لَكِي تَتَحَوَّلُ الْأَفْكَارُ دِيدَانًا بِرَأْسِ الطَّامِحِينَ إِلَى التَّقَاءِ ...؟  
الْيَأْسُ مَوْجُودٌ  
يُرَاوِدُنَا عَنِ الْأَمَلِ الْمُصَقَّفِ  
فِي دَفَاتِرِنَا وَفِي أَشْعَارِنَا  
وَكَأَنَّهُ رُسُلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ تَدْعُو لِلجِنَانِ  
كَأَنَّهُ فِي اللَّيْلِ رَائِحَةُ الْخَبِيرِ  
تَزُورُ حَيًّا جَائِعًا بِجَوَارِ قَصْرِ لَيْسَ يَسْمَعُ  
عَنْ مُعَانَاةِ الْفَقِيرِ مِنَ الْعَلَاءِ ...!  
مَاذَا يُرِيدُ الْيَأْسُ مِنِّي غَيْرَ إِسْمَاعِي  
صُرَاخِ حَنَاجِرِ الصُّبْحِ الْمُقَاوِمِ  
رَغْمَ سِكِّينِ الْفَنَاءِ ...؟  
أَنَا لَسْتُ مَغْرُورًا  
وَلَكِنْ  
هَلْ يَرَانِي الْيَأْسُ إِسَانًا مُهِمًّا ؟

مَاذَا يُرِيدُ الْيَأْسُ مِنِّي ؟

هَلْ يَرَى غَيْرِي مِنَ الْبَشَرِ الضَّعَافِ مُهَمَّشِينَ  
لَكِي يُهَاجِمَنِي أَنَا ؟  
سَيَقُولُ : " قَدْ هَاجَمْتُ كُلَّ النَّاسِ وَاسْتَمَلَكْتُهُمْ " !  
سَأَقُولُ : " قَدْ هَاجَمْتَ كُلَّ النَّاسِ  
وَاسْتَمَلَكْتَ مَا اسْتَمَلَكْتَ "  
لَا تَفَخَّرْ ... !  
مَاذَا يُرِيدُ الْيَأْسُ مِنِّي ...  
سَوْفَ يَزْعُمُ أَنَّ كُلَّ أَحِبَّتِي غَدَرُوا  
وَأَنَّ جَمِيعَ مَنْ أَبْغَضْتُهُمْ قَدَرُوا ...  
مَاذَا يُرِيدُ الْيَأْسُ مِنِّي ...  
غَيْرَ كَسْرِي  
ثُمَّ حَصْرِي  
ثُمَّ عَصْرِي  
هَلْ يُرِيدُ فَصِيدَةً فِي مَدْحِهِ ؟  
أَمْ هَلْ يُرِيدُ فَصِيدَةً تَهْجُو الْأَمَلَ ؟  
أَنَا لَيْسَ مِنْ طَبْعِي أَكْفِئُهُ عَلَى هَجْمَاتِهِ

وَلَوْ أَنَّنِي أَبْصَرْتُ فِيهِ تَخَلُّصًا مِنْ رَغْبَتِي  
فِي عِشْقٍ مَا أَهْوَاهُ فِي دَرْبِي  
إِذَا لَعَشِقْتُهُ ... !  
مَاذَا يُرِيدُ الْيَأْسُ مِنِّي ...  
لَسْتُ أَدْرِي  
لَا يَهُمُّ  
فَلَسْتُ أُعْطِي الْيَأْسَ مَا يَبْغِي  
وَلَكِنْ  
سَوْفَ أَنْزِعُ مِنْهُ أَسْنَانًا يَهْدِدُنِي بِهَا  
وَأَصْفُهَا عِقْدًا بُدَائِيًّا  
لِيَعْتَبِرَ الَّذِينَ أَحْبَبْتُهُمْ ... !

## رِثَاءُ مُحَمَّدٍ (\*)

تَعَوَّدْتُ أَرِثِي الْكَرَامَ ...  
وَشِعْرِي إِذَا مَا رَثَيْتُ يُجَمِّعُ كُلَّ دُمُوعِ الْمُحِبِّينَ فِي دَمْعَةٍ مِنْ  
كَلامٍ ...!  
تَعَوَّدْتُ أَعْجِنُ دَمْعَ الرِّثَاءِ بِطِينِ الْهَجَاءِ  
وَأَقْذِفُهُ لِقُصُورِ الظَّلَامِ ...  
تَعَوَّدْتُ مَعَ كُلِّ مَوْتٍ - كَمَا تَعْلَمُونَ - أَسْأَلُ نَفْسِي  
عَنِ السَّرِّ فِي قِصْرِ الْعُمْرِ لِابْنِ الْحَلَالِ  
وَطُولِ التَّمَدُّدِ لِابْنِ الْحَرَامِ ...!  
تَعَوَّدْتُ مَعَ كُلِّ مَوْتٍ أَرَى الْأَمْرَ قَتْلًا صَرِيحًا يُطَالِبُنَا بِانْتِقَامٍ ...  
أَنَا نَائِبٌ عَنْكُمْ حِينَ أَبْكِي قَرِيضًا  
يُؤَدِّي إِلَى الرَّاحِلِينَ السَّلَامَ ...  
أَنَا نَائِبٌ عَنْكُمْ حِينَ أَهْجُو الَّذِينَ يَزِيدُ بِهِمْ مَوْتُنَا  
وَيَطُولُ بِتَقْتِيلِنَا عُمْرُهُمْ فِي كِرَاسِي حُكْمِ الْإِمَارَةِ  
رَغْمَ جَمِيعِ الْأَنَامِ ...  
أَنَا نَائِبٌ عَنْكُمْ حِينَ أَشْحَدُ سَيْفَ الْهَجَاءِ بِمِبْرَدِ فَنِّ الرِّثَاءِ  
لنُظْهِرَ لِلرَّاحِلِينَ طُقُوسَ احْتِرَامٍ ...

(\*) رثاء المفكر المصري الكبير الدكتور محمد السيد سعيد

بِمِصْرٍ يَمُوتُ الْمَوْتُ وَالشَّعْبُ خَالِدٌ

فَتَبَقَى لَهُ الْحُسْنَى وَنُسِيَ هَزَائِمُهُ

سِوَانَا يَهَابُ الْمَوْتُ حِينَ يَزُورُهُ

وَنَحْنُ يَفِرُّ الْمَوْتُ حِينَ نُدَاهِمُهُ

بِمِصْرٍ يَعِيشُ الشَّعْبُ قِصَّةَ خُلْدِهِ

وَيَهْلِكُ فِي قِصْرِ الْخِيَانَةِ حَاكِمُهُ

فَيَبْقَى بَرَعَمِ الدَّهْرِ طَيْبٌ فِعَالِنَا

وَحَاكِمُنَا بِالْخِزْيِ تَبْقَى جَرَائِمُهُ

وَيَنْفُذُ أَمْرُ الدَّهْرِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ

وَنَحْنُ مَعَ الدَّهْرِ الْفَقِيرِ نُسَاوِمُهُ

وَيَنْفُذُ حُكْمُ الْمَوْتِ خَارِجَ أَرْضِنَا

وَفِي مِصْرٍ أَهْرَامُ الْجُدُودِ تُحَاكِمُهُ

فَلَا يَعْجَبَنَّ كَرِيمٌ مِنَ الْكِرْمَاءِ بِخَلْطِ الرِّثَاءِ الرَّقِيقِ

بِبَعْضِ الْهَجَاءِ الصَّفِيقِ

فَذَلِكَ فَنُّ جَدِيدٌ

أُسْجَلُهُ الْيَوْمَ بِاسْمِ الْكِرَامِ بِأَرْضِ الْكِنَانَةِ جَهْرًا

كَبَدْرِ التَّمَامِ ...

وَلَسْتُ الْمُخَيَّرَ فِي كُلِّ ذَاكَ

وَلَكِنِّي قَدْ نُدِبْتُ لِكَيِّ أَسْأَلَ مَعَ كُلِّ مَوْتٍ

لِمَاذَا يَمُوتُ بِمِصْرٍ الَّذِينَ تُرِيدُ لَهُمْ أَنْ يَعِيشُوا

وَيَبْقَى اللَّئَامُ ...؟

\* \* \*

إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْخَنَا مَنْ تُخَاصِمُهُ

لَعَمْرُكَ لَنْ تُجْدِيَ الْكَرِيمَ مَكَارِمُهُ

وَلَيْسَ بَعِيْبٌ أَنْ تَرَى الْكَلْبَ حَاكِمًا

بَلِ الْعَيْبُ تَلْقَى الشَّعْبَ لَيْسَ يُقَاوِمُهُ

نُعَلِّمُ أَحْفَادَ الْحَفِيدِ صُمُودَنَا  
 وَتُنْقِلُ مِن جَدِّ الْجُدُودِ عِظَانَهُ  
 تَزِيدُ بِدَرْبِ الْحَقِّ فِينَا فَضَائِلَ  
 وَحَاكِمَنَا بِالسُّحْتِ زَادَتْ دَرَاهِمُهُ  
 فَيَرْفَعُ بَيْتَ الْعَنْكَبُوتِ بِمَالِهِ  
 وَلِلشَّعْبِ صَرْحٌ لَا تَهْزُدَعَائِمُهُ  
 وَإِنَّا لَشَعْبٌ يَهْزِمُ الظُّلْمَ صَبْرُهُ  
 يُطَاوِلُ أَيُّوبًا بِهِ وَيُعَازِظُهُ  
 فَيَصْبِرُ إِن كَانَ النَّفِيرُ مَدْمَمَةً  
 وَيَضْرِبُ إِن كَانَ الزَّمَانُ يُوَاتِمُهُ  
 فَكُنْ مِثْلَ حَدِّ السَّيْفِ فِي غَمْدِ فَارِسٍ  
 يُسَالِمُ كُلَّ النَّاسِ حِينَ تُسَالِمُهُ

وَكُنْ مِثْلَ حَدِّ السَّيْفِ يُشْرِقُ قَاتِلًا  
 إِذَا جَاءَ رَعْدِيدُ الظَّلَامِ يَهَاجِمُهُ  
 بِمِصْرَ تَرَى شَعْبًا يُؤَدِّبُ حَاكِمًا  
 يُجَادِلُهُ حِينًا وَحِينًا يُشَاتِمُهُ  
 نُخَلِّدُ حُكَّامًا ، وَنُقْتَلُ بَعْضَهُمْ  
 وَكُلُّ بَنِي الدُّنْيَا لَهُ مَا يُلَاقِيهِ  
 تَرَانَا كَخَيْلِ الْعِزِّ إِن هَبَّ جَامِحًا  
 عَلَى سَقْفِ قِصْرِ الظُّلْمِ دَبَّتْ قَوَائِمُهُ  
 تُسَايِرُهُ بِالصَّمْتِ ثُمَّ نَجْرُهُ  
 إِلَى سَاحَةِ الإِعْدَامِ فَاللَّهُ قَاصِمُهُ  
 فَتَسْقُطُ رَأْسُ الْكَلْبِ عِنْدَ حِدَائِنَا  
 وَيُتْرَكُ مِنْ أَجْلِ الشَّمَانَةِ خَادِمُهُ

مُحَمَّدٌ ...

أَنْتَ احْتِرَامُ الْيَمِينِ وَ أَنْتَ انْبِعَاثُ الْيَسَارِ الَّذِي لَمْ تَخُنْهُ ...

مُحَمَّدٌ ...

لَسْتُ أَقُولُ لِكُلِّ الْمُحِبِّينَ حَسْبُكَ مَا كُنْتَهُ بَلْ أَقُولُ لَهُمْ

إِنَّ حَسْبُكَ مَا كُنْتَهُ

وَكَذَلِكَ حَسْبُكَ مَا لَمْ تَكُنْهُ ...!

وَلَمْ تَكُ يَوْمًا بَدِيئًا وَلَمْ تَكُ يَوْمًا نَسِيًّا ...

وَلَمْ تَكُ يَوْمًا رَخِيصًا وَلَمْ تَكُ يَوْمًا غَنِيًّا ...

وَلَمْ تَكُ فِي مَوْكِبِ الْعَهْرِ شَاهِدَ زُورٍ

وَلَمْ تَكُ يَوْمًا شَقِيًّا ...

وَلَمْ تَكُ حِينَ تُعَدُّ الدَّنَائِرُ لِلخَائِنِينَ صَفِيًّا ...

وَلَمْ تَكُ يَوْمًا دَعِيًّا ...

وَلَمْ تَكُ يَوْمًا خَصِيًّا ...

فَعِشْتَ بِرُؤْيَا أَهْلِ الْيَسَارِ نَبِيًّا ...!

وَمِتَّ بِرُؤْيَا أَهْلِ الْيَمِينِ رَضِيًّا ...!

\* \* \*

تُجَمِّعُنَا الْيَوْمَ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ لَنَخْلُقَ قَوْسَ قُرْحٍ ...

تُجَمِّعُنَا مِثْلَمَا كُنْتَ تَفْعَلُ دَوْمًا لَنَعْرِفَ لَحْنَ الْفَرْحِ ...

مُحَمَّدُ أَنْتَ الدَّلِيلُ ...

وَ أَنْتَ الَّذِي قَدْ رَسَمْتَ "الْبَدِيلُ" ...

وَ أَنْتَ الْهُدُوءُ الْجَمِيلُ ...

وَ أَنْتَ مَبْشَرُنَا بِانْتِهَاءِ الظَّلَامِ الطَّوِيلِ ...

وَ أَنْتَ الَّذِي فِي الْخِصَامِ نَبِيلُ ...

مُحَمَّدُ ...

فِكْرُكَ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ جَدْرٌ

وَفَوْقَ السَّمَاءِ يَلُوحُ كَمَا سَعَفَ لِلنَّخِيلِ ...

مُحَمَّدُ ...

فَالنَّبِيلُ يَرْتُو إِلَيْكَ كَطِفْلِ يُودِّي السَّلَامَ لِشَيْخٍ جَلِيلٍ ...!

\* \* \*

أَقُولُ خِتَامًا :

رِثَاؤُكَ أَمْرٌ ثَقِيلٌ كَرِيهُ ...!

أَقُولُ لَكُمْ وَلِكُلِّ بَنِيهِ ...

قَضَى عُمُرَهُ فِي ادِّخَارِ الضِّيَاءِ لِيَذْكُرَهُ مَنْ يَلِيهِ ...

مَوَائِدُهُ لَمْ تَزَلْ عَامِرَاتٍ لِيَأْكُلَ مِنْهَا الْوَجِيهَ  
وَيَأْكُلَ مِنْهَا السَّفِيهَ ...  
مَسِيرَتُهُ أَثْقَلَتْ عَاذِلِيهَ ...!  
وَسِيرَتُهُ أَثْكَلَتْ قَاتِلِيهَ ...!

٢٠٠٩ / ١١ / ١١

تمت في القاهرة

## بين يدي القصيدة

تُوْفِيَتْ أُمِّي الحَبِيْبَةُ رَحْمَهَا اللهُ فِي ظَهْرِ يَوْمِ الخَمِيْسِ  
٢١/يونيو/٢٠١٢، وَكَانَ ذَلِكَ فِي مَدِيْنَةِ الدَّوْحَةِ بِقَطْر، عَن  
عُمُرٍ تَجَاوَزَ الثَّلَاثَةَ وَالسَّبْعِيْنَ .

أَقُولُ تُوْفِيَتْ، وَلَا أَقُولُ رَحَلَتْ، لِأَنَّهَا رَحَلَتْ عَنِّ عَالِمِنَا  
هَذَا قَبْلَ ذَلِكَ التَّارِيخِ بَعْدَهُ أَعْوَامٌ، فَقَدْ شَاءَتْ إِرَادَةُ اللهُ  
سُبْحَانَهُ أَنْ يَرْفَعَ مِنْ دَرَجَاتِهَا عِنْدَهُ بِأَنْ ابْتَلَاهَا بِمَرَضِ  
"الزَّهَائِمِر"، فَأَصْبَحَتْ حَاضِرَةً غَائِبَةً، أَوْ أَصْبَحَتْ تَحْضُرُ  
حِينَهَا وَتَغِيْبُ حِينَهَا، وَمَعَ الأَيَامِ أَصْبَحَ الغِيَابُ أَكْثَرَ مِنَ  
الحُضُورِ، وَلِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ، وَلَهُ الحَمْدُ عَلَى  
كُلِّ حَالٍ .

فِي ذَلِكَ الوَقْتِ أَيْقَنْتُ أَنَّ الإِنْسَانَ مَا هُوَ إِلا ذَاكِرَةً،  
وَأَنَّ الإِنْسَانَ بِلا ذَاكِرَةٍ يُصْبِحُ كَيْنُونَةً أُخْرَى غَيْرَ  
كَيْنُونَتِهِ، وَسَلْبُ الذَّاكِرَةِ مَوْتُ حَقِيْقِي لا مَجَازِيٌّ، يَنْطَبِقُ  
ذَلِكَ عَلَى الأَفْرَادِ وَالجَمَاعَاتِ، وَقَدْ رَأَيْتُهُ رَأَى عَيْنٍ فِي أَحَبِّ  
النَّاسِ إِلى قَلْبِي .

لِذَلِكَ حِينَ بَدَأْتُ كِتَابَةَ هَذِهِ القَصِيْدَةِ لَمْ أَكُنْ أَرُ  
المَوْتَ شَكْلًا وَحِيدًا لِلرَّحِيْلِ، بَلْ كُنْتُ أَعْرِفُ تَمَامًا أَنَّ

رِثَاءُ امْرَأَةٍ لَا تَمُوتُ



ولا شك أننا في مجتمعاتنا العربية والشرقية ما زلنا نَظْلِمُ النِّسَاءَ، نَظْلِمُ أُمَّهَاتِنَا وَزَوْجَاتِنَا وَأَخَوَاتِنَا وَبَنَاتِنَا، نَظْلِمُهُنَّ بِقَصْدٍ وَبِدُونِ قَصْدٍ، وَمِنَ الْمُمَكِّنِ أَنْ نَظْلِمَهُنَّ وَنَحْنُ نَظُنُّ أَنَّنَا نُحْسِنُ صُنْعًا، وَأَنَّنا نَتَقَرَّبُ بِذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنِ الظُّلْمِ عُلُوًّا كَبِيرًا .

كَانَتْ أُمِّي رَحِمَهَا اللَّهُ مِنْ جِيلٍ فَرِيدٍ مِنَ النِّسَاءِ، جِيلٍ دَيْدَنُهُ الْعَطَاءُ، وَوُجُودُهُ يَعْتَمِدُ عَلَى أَنْ يُسْعِدَ الْآخِرِينَ، فَهِيَ لَا تَبْتَهَجُ إِلَّا بِإِسْعَادِ زَوْجِهَا وَأَبْنَائِهَا وَأُسْرَتِهَا، فَكَانَ لَهَا مِنْ اسْمِهَا أَكْبَرُ نَصِيبٍ، فَهِيَ "إِسْعَاد"، وَكَانَتْ مَصْدَرُ إِسْعَادٍ لِكُلِّ مَنْ حَوْلَهَا .

شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمُدَّ فِي عُمُرِهَا، فَأَهْدَتْ مِنْ ثَمَارِ حِكْمَتِهَا ثَلَاثَةَ أَجْيَالٍ، فَرَبَّتْ الْأَبْنَاءَ، وَالْأَحْفَادَ، وَبَعْضَ أَبْنَاءِ الْأَحْفَادِ. هَذِهِ قَصِيدَةٌ أَحَاوَلُ أَنْ أَرْتِي بِهَا كُلَّ نِسَاءِ الدُّنْيَا، إِكْرَامًا لَامْرَأَةٍ عَظِيمَةٍ ... هِيَ أُمِّي ...! أَسْأَلُ اللَّهَ لَهَا الرَّحْمَةَ وَالْمَغْفِرَةَ، وَلِكُلِّ الْأُمَّهَاتِ ...

عبد الرحمن بن يوسف

القاهرة ٢٠١٢/٧/١م

الرَّحِيلَ قَدْ يَكُونُ بِرَحِيلِ ذَاكِرَةَ الْإِنْسَانِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ مِنَ الْمُمَكِّنِ أَنْ يَرْحَلَ وَهُوَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ (وَحِينَهَا مِنَ الْمُمَكِّنِ بَلْ مِنَ الْوَاجِبِ رِثَاؤُهُ!)، كَمَا أَنَّهُ مِنَ الْمُمَكِّنِ أَنْ يَبْقَى حَيًّا أَبَدَ الدَّهْرِ وَإِنْ مَاتَ وَقُبِرَ (وَحِينَهَا يَكُونُ الرِّثَاءُ مُجَرَّدَ مَرَاسِيمٍ وَدَاعٍ)!

كَتَبْتُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ فِي رِثَاءِ أُمِّي بَعْدَ أَنْ بَدَأَ رَحِيلُهَا (بَسَلْبِ الذَّاكِرَةِ)، وَقَبْلَ أَنْ يَتَوَفَّاهَا اللَّهُ (بِالْمَوْتِ)، وَكُنْتُ أَكْتُمُ هَذِهِ الْمَشَاعِرَ عَنْ أَبِي وَإِخْوَتِي، وَلَمْ أَصَارِحْ أَحَدًا بِكِتَابَةِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ إِلَّا بَعْدَ وَفَاةِ أُمِّي رَحِمَهَا اللَّهُ، وَقَدْ يَسْتَعْرِبُ الْقَارِئُ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ الَّذِي قَدْ يُحْسَبُ مِنْ بَابِ الْفَالِ السِّيِّءِ، فَقَدْ كُتِبَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ فِي دَيْسَمْبَرِ ٢٠٠٧، أَيَّ قَبْلَ الْوَفَاةِ بِحَوَالِي أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ، وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّ الشَّاعِرَ لَا يَمْلِكُ أَنْ يَمْنَعَ الْقَصِيدَةَ أَوْ أَنْ يَسْمَحَ لَهَا، فَهِيَ أَشْبَهُ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ أَوْ غُرُوبِهَا، فَهِيَ كَالظُّوَاهِرِ الْكُونِيَّةِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ لَهَا جَلْبًا وَلَا دَفْعًا، لِذَلِكَ حِينَ تَدَفَّقَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ لَمْ أَمْلِكُ سِوَى أَنْ أَكْتُبَهَا، وَقَدْ تَمَّتْ فِي حَوَالِي أُسْبُوعَيْنِ، وَهُوَ زَمَنٌ قِيَاسِيٌّ بِالنِّسْبَةِ لِحَجْمِهَا .

مِنْ عَجَائِبِ مَا حَدَّثَ لِي أَنَّنِي بَكَيْتُ أُمِّي كَثِيرًا فِي أَنْشَاءِ كِتَابَةِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ، وَلَكِنِّي لَمْ أَبْكُ حِينَ تَوَفَّاهَا اللَّهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَصْدٍ مِنِّي فِي الْحَالَتَيْنِ .

(٢)

أَحَاوِلُ حَثَّ خَيَالِي لِتَحْقِيقِ بَعْضِ الْأَمَانِي ...  
وَتَجْمِيلِ صَعْبِ الْمَعَانِي بِسَهْلِ الْمَبَانِي ...  
وَتَوْظِيفِ بَعْضِ الرُّمُوزِ الْمُضِيئَةِ فِي ظُلُمَاتِ قَصِيدٍ يُعَانِي ...  
وَتَقْسِيرِ بَعْضِ غُمُوضِ اللَّحُونِ لِكَي تَسْتَقِرَّ الْأَغَانِي ...  
وَتَجْرِيدِ بَعْضِ مِنَ الْوَقْتِ كَي تَسْتَفِيقَ النَّوَانِي ...  
أَحَاوِلُ أَنْ أَسْتَجِيبَ لِرَغْبَةِ سَرْدِي ...  
وَتَطْوِيعِ صَمْتِ الشِّتَاءِ لِرَعْفَةِ رَعْدِي ...  
أَحَاوِلُ أَنْظُرُ فِي عَيْنِ حَزْنِي نَدَاءً لِنَدِّ ...!

(٣)

عَلَى شَفَةِ الشُّعْرِ دَمْعٌ عَلَى وَزْنِ كُلِّ الْبُحُورِ  
بِهِ يَنْظُمُ الْحَزْنَ لَطْمِيئَةً تَسْتَفِرُّ أَيَادِي الْحَجِيجِ  
لِضَرْبِ الصُّدُورِ  
وَكُلُّ الْمَرَاقِدِ عَبْرَ الْعُصُورِ تَشْرَبَتِ الدَّمْعَ  
كَي أَسْتَعِيرَ تَرَائِكُمْ تِلْكَ الشُّجُونَ لِأَكْتُبَ سَطْرًا مِنَ الشُّعْرِ

(١)

عَلَى شَفَةِ الْمَجْدِ بَيْتٌ مِنَ الشُّعْرِ  
فِيهِ مَدِيحٌ لِأُمِّي الَّتِي لَمْ تَكُنْ ذَاتَ يَوْمٍ لِتَرْفَعَ مَجْدًا لَهَا  
لَيْسَ فِيهِ شَرِيكٌ مِنَ الرُّوْحِ أَوْ مِنْ سُلَالَتِهَا اللَّوْلُؤِيَّةِ  
فِيهِ مَدِيحٌ لِأُمِّي الَّتِي مَا تَبَقَى لَهَا أَيُّ شَيْءٍ بِدُونِ شَرِيكِ  
سِوَى بَعْضِ مَا تَقْتَنِي مِنْ أَسَاوِرَ فَهُوَ لَهَا  
(فَهُوَ ذَوْقٌ قَدِيمٌ وَلَنْ يَسْتَطِيعَ سِوَاهَا ارْتِدَاءً لَهُ)  
لَيْسَ تَمْلِكُ مَجْدًا لَهَا وَحَدَهَا  
قَسَمْتُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى قِسْمَةِ الْحَبِّ - لَا الشَّرْعَ -  
بَيْنَ الْبَنَاتِ وَبَيْنَ الْبَنِينَ ...  
وَبَيْنَ مُرُورِ السِّنِينَ ...  
وَبَيْنَ الْعِنَايَةِ بِالْحَاضِرِينَ ...  
وَبَيْنَ التَّشَوُّقِ لِلْغَائِبِينَ ...  
وَبَيْنَ التَّأَكُّدِ مِنْ أَنَّ مَا مَلَكَتُهُ تَوَزَّعَ بِالْعَدْلِ بَيْنَ الْجَمِيعِ  
فَتَبَقَى وَلَا مَجْدَ خُطَّ عَلَيْهِ اسْمُهَا  
قَدْ تَفَرَّقَ مَا بَيْنَ أَمْجَادِ تِلْكَ السُّلَالَةِ  
مَجْدٌ لِأُمِّي ...!

ليُولدَ حَرْفُ الوُجُودِ ...  
وَحَفَرَ مَسِيلَ لِمَاءِ  
لِيَمَلَأَ مَا خَلَفَ تَلْكَ السُّدُودِ ...  
وَرَسَمَ طَرِيقَ لِعَقْلِي  
كَيْ يَسْتَفْرَ قِيُودِي ...  
وَحَلَقَ سُؤَالَ جَدِيدِ  
لِيُبْعَثَ مَوْتَ رُدُودِي ...  
وَتَحْدِيدَ أَهْدَافِ تَلْكَ الْقَصِيدَةِ  
كَيْ لَا تَضِيْعَ جُهُودِي ...!

(٥)

تَوَارِدُ بَعْضِ الْخَوَاطِرِ بَيْنِي وَبَيْنَ مَلَائِكِ الْمَوَاتِ  
يُؤَكِّدُ أَنَّ احْتِمَالَ الْحَيَاةِ لِجِنْسِ النِّسَاءِ ضَعِيفٌ ...  
ضَعِيفٌ ...  
ضَعِيفٌ ...

أَمَامَ احْتِمَالَ الْمَمَاتِ ...

فَلَيْسَ لِيْذَهْنِي أَيُّ فَضِيلَةٍ سَبَقِ  
إِذَا لَمَحَ السَّيْلُ يَجْرِفُ قَرْيَةَ شُؤْمٍ بِمَجْرَى حُطَى السَّيْلِ

يَبْكِي عَلَى ظُلْمِ أُمِّي

الَّتِي لَمْ تُقَصِّرْ بِتَجْهِيزِ حُلُوِ الشَّطَائِرِ لِلذَّاهِبِينَ إِلَى الدَّرْسِ  
عَبْرَ السِّنِينَ

وَلَمْ تَدَّخِرْ جَهْدَهَا كَيْ تُوثِقَ ذِكْرِي طُفُولَةَ كُلِّ السُّلَالَةِ  
لَمْ تَبْكِ يَوْمًا بِحَضْرَتِنَا كَيْ تَظَلَّ السَّعَادَةَ طَيْرًا يَحُطُّ عَلَى  
كَتِفِ الْبَيْتِ

لَمْ تَدَّخِرْ طَاقَةً لِلزَّغَارِيدِ عِنْدَ النَّجَاحِ

وَ عِنْدَ الزَّوْاجِ

وَ عِنْدَ خِتَانِ الْحَفِيدِ

وَلَمْ تَبْكِ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ دَمَعَ النِّسَاءِ سِلَاحٌ قَدِيمٌ مُبَاحٌ  
لِكَيْ لَا تُسَوِّغَ إِشْهَارَ هَذَا السِّلَاحِ لِتِلْكَ السُّلَالَةِ  
لَمْ تَبْكِ إِلَّا بُعِيدَ تَأَكُّدِهَا مِنْ سَعَادَةِ كُلِّ السُّلَالَةِ  
لَمْ تَبْكِ إِلَّا قُبَيْلَ الرَّحِيلِ ...!

(٤)

أَحَاوِلُ أَحْرَبْتُ أَرْضَ الْقَصِيدِ

لِتَنْبُتَ بَعْضُ الْوُرُودِ ...

وَشَطَبَ سَطُورِ الْمَمَاتِ

(٦)

أُحَاوِلُ أَلَّا أُسَلِّمَ قَلْبِي إِلَى رَغْبَتِي فِي اللِّقَاءِ ...  
وَأَلَّا يَطُولَ بِهَذَا الْمَقَامِ بَقَائِي ...  
وَأَلَّا أُوَاجِهَ قَبْلَ الْأَوَانِ فَنَائِي ...  
وَأَلَّا أُغَيِّرَ فِي ظُلُمَاتِ الزَّمَانِ وَلَاثِي ...  
وَأَلَّا أُحْكَمَ ظُلْمَ الرَّجُولَةِ فِيَّ بِعَدْلِ طِبَاعِ النِّسَاءِ ...  
وَأَلَّا أُسَطَّرَ قَبْلَ الرَّحِيلِ رِثَائِي ...!

(٧)

أُرَاقُ عَلَى سُلْمِ الشَّدْوِ مَاءً حَزِينًا عَلَى الْعَتَبَاتِ ...  
أُرَاقُ عَلَى مَسْمَعِ الضَّاحِكِينَ مَقَامًا فَرِيدًا  
يُعْرِدُ بَيْنَ الصَّبَا وَالْبِيَّاتِي ...  
أَنَا مَنْ يَزِيدُ الرِّثَاءَ رِثَاءً ...  
كَلَطْمِيَّةٍ تَتَرَدَّدُ بَعْدَ قُرُونٍ  
تُخَلِّدُ حُزْنًا تَفَجَّرَ قَبْلَ  
وَعِنْدَ  
وَبَعْدَ الْوَفَاةِ ...

لَيْسَ لِدِهْنِي سَبْقٌ إِذَا مَا تَبَّأَ  
أَنَّ السَّفِينِ بِلا بَوْصَلَةٍ سَتُّوهُ  
وَأَنَّ ارْتِطَامَ السَّفِينَةِ بِالْقَاعِ  
حَتْمًا سَيَحْدُثُ بَعْدَ الْغَرَقِ ...  
مَدِيحُ الْجُدُودِ لِرِزْقَاءِ أَرْضِ الْيَمَامَةِ لَهُوَ  
وَأَوْلَى بِهِمْ دَمٌ عُمَيَّانِ تِلْكَ الْقَبِيلَةَ  
( كَانُوا ذُكُورًا وَرِزْقَاءَ أُنثَى ) ...!  
تَرَى شَجَرًا لِلْأَمَامِ يَسِيرُ ...  
مَدِيحُ النِّسَاءِ سَيُعْفِي جُدُودِي الذُّكُورَ مِنَ الدَّمِّ  
كَيْ تَسْتَمِرَّ الْحَيَاةُ ...  
نِسَاءً تَرَى ...  
وَرِجَالًا تَعَامَتْ عَنِ الرَّعْدِ مَهْمَا زَعَقَ ...  
ذُكُورُ الْقَبِيلَةِ تَحْكُمُ كَيْفَ اتَّفَقَ ...!  
وَرِزْقَاءُ كُلِّ الْقَبَائِلِ تَصْرُخُ مِنْذُ الْقَدِيمِ  
لَعَلَّ الذُّكُورَ تُحَازِرُ مِنْ ظُلُمَاتِ النَّفَقِ ...!

أَنَا الْمُسْتَزِيدُ مِنَ الْمَوْتِ عَبْرَ الْمَجَازِ  
وَعَبْرَ الْحَقِيقَةِ  
عَبْرَ السَّلِيقَةِ  
عَبْرَ الْقَرِيضِ  
وَعَبْرَ الشَّتَاتِ ...  
أَرَأَيْتَ رِثَاءً يُذَكِّرُنِي بِجَفَافِ الْوُرُودِ عَلَى الشَّرُفَاتِ ...

(٨)

شُعَاعًا أَنَا صِرْتُ  
يَا مَصْدَرَ الضَّوِّ  
يَا مَوْتِلَ الضَّوِّ ...  
صَوْتًا أَنَا صِرْتُ  
يَا مَصْدَرَ الصَّوْتِ  
يَا مَرْجِعَ الصَّوْتِ ...  
لَوْنًا أَنَا صِرْتُ  
يَا مَنَشَأَ اللَّوْنِ  
يَا مَهَيْطَ اللَّوْنِ ...  
نَبْئًا أَنَا صِرْتُ

يَا مَنْبِتَ اللَّوْنِ  
يَا مَشْتَلَ النَّبْتِ ...  
نَارًا أَنَا صِرْتُ  
يَا مَقْدَحَ النَّارِ  
يَا مَصْنَهَرَ النَّارِ ...  
مَجْرَى أَنَا صِرْتُ  
يَا مَنْبَعَ النَّهْرِ  
يَا كُلَّ هَذِي الْخِيُولِ الَّتِي لَوَّتْ كَلِمَاتِي ...  
رِثَاءُكَ يَبْدُو رِثَاءَ الْحَيَاةِ ...  
رِثَاءً تَدْفُقُ بِالْحُزْنِ لَا بِالْمَمَاتِ ...

(٩)

عَلَى طَرْفِ الشَّعْرِ يَسْكُنُ رَكْبُ الرَّحِيلِ ...  
وَنَفْسٌ تَحْنُ إِلَى الْمُسْتَحِيلِ ...  
وَوَجْهُكَ - قَبْلَ تَعَكُّرِ مَاءِ الْحَيَاةِ - يَطُوفُ شِرَاعًا جَسُورًا  
يُجْمَلُ رَسْمَةً نِيلِي ...  
وَوَجْهُكَ - قَبْلَ امْتِلَاءِ كُؤُوسِ الْوَسَاوِسِ - فَاضَ شَبَابًا  
كَأَنَّ التَّجَاعِيدَ كَانَتْ بَعِيْنِي أَنَا

لا بوجهك ذاك الجميل ...  
 ووجهك - قبل انقراض الطفولة في - يحولني رمز جيلي ...  
 ووجهك - قبل انقراض السكاكين عمراً وحزناً -  
 يلوح كدرع  
 به أحتمي من زماني العليل ...  
 ووجهك - بعد انقراض الذكور - يعيرني  
 بسلوكي الدليل ...!  
 أحبك  
 لكن  
 بشرط الذكورة  
 ما كنت أعلم - أو كنت أعلم؟ - أن المحبة  
 شرط الرجولة  
 والحب دون شروط  
 يُسمى عطاء النساء ...!  
 أحبك  
 لكن  
 بوقت الفراغ

وما كنت أعلم - أو كنت أعلم؟ - أن جميع المشاغل  
 تأتي دوماً بوقت الفراغ  
 وجل المشاغل محض ادعاء ...  
 أحبك  
 حب اضطرار  
 وأنت تحبين حب اختيار وحب اضطرار  
 وما كنت أعلم - والله ما كنت أعلم -  
 أن اضطراري بحبك  
 كان اختياراً لهجوي عند الرثاء ...

(١٠)

على حائط البيت أبصرت صورتك  
 استأنت حين رأيت عليها شريط سواد ...  
 بين الإطار  
 كأن الإطار المذهب أدرك رمز الحداد ...  
 فقمتم  
 وأنزلت من فوق كل جدار بيتي كل تصاویر فيها

دُكُورٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ ...  
 لَقَدْ حَمَلْتَنَا بُطُونُ النِّسَاءِ ...  
 وَمِنْ بَعْدُ قَدْ وَلَدَتْنَا النِّسَاءُ ...  
 لِنَرْضَعَ مِنْ ثَدْيِي تِلْكَ النِّسَاءُ ...  
 وَنَكْبُرُ فِي حِضْنِ تِلْكَ النِّسَاءِ ...  
 وَنُسَبُ - يَا لِلتَّجْبُرِ - لِاسْمِ ذَكَرٍ ...!  
 وَتَرْفَعُ فِي بَهْوِ كُلِّ الْبُيُوتِ لِتِلْكَ الدُّكُورِ الصُّورُ ...!  
 غَفَوْتُ  
 وَقَلْبِي بِصُورَةِ أُمِّي تَعَلَّقَ  
 وَهِيَ مُعَلَّقَةٌ فَوْقَ ذَلِكَ الْجِدَارِ ...  
 وَجَدْتُ مَلَائِكَةَ الْبَعْثِ نَادَتْ عَلَيَّ  
 وَتَسْبِيئِي - يَا لَعَدْلِ الْإِلَهِ - لِأُمِّي ...!  
 أَفْقَتُ  
 وَعَيْنِي عَلَى وَجْهِ أُمِّي فَوْقَ الْجِدَارِ ...  
 وَمَا زَالَ يَبْدُو شَرِيطُ السَّوَادِ ...!

(١١)

رَفَعْتُ إِلَى اللَّهِ كَفِّي لِأَدْعُو بِصَمْتِ  
 لِأَنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ نُطْقَ ذَلِكَ الدُّعَاءِ ...

بَأَيِّ قِتَاعٍ أَقَابِلُ رَبِّي ؟  
 بَأَيِّ سُفُورِ الْخَطَايَا أُوَاجِهُ رَبِّي ؟  
 أَيَقْبَلُ رَبِّي تَرْحَمَ جِنْسَ الدُّكُورِ الْغِلَاطِ عَلَى طَهْرٍ هَذِي  
 النِّسَاءِ ؟  
 تَعَلَّمْتُ فِي حِضْنِ أُمِّي الْأُمُومَةَ ...  
 وَكُرَهُ الْحُكُومَةَ ...  
 وَكَيْفَ أُوَالِي - لِصَدِّ الْغَرِيبِ - أَخِي وَالْعُمُومَةَ ...  
 وَكَيْفَ مَقَامَ الْأَبُوءِ يَبْقَى عَزِيزًا  
 - وَإِنْ جَارَ - كَاللَّيْلِ يَرْمِي بِكَبِيرِ نُجُومِهِ ...  
 وَقَدْ عَلَّمْتَنِي نُصُوصُ شَيْوُخِ الْقَبِيلَةِ  
 أَلَا أُصَدِّقُ أُمِّي إِذَا عَلَّمْتَنِي اسْتِقَامَةَ ضِلْعِ النِّسَاءِ ...  
 وَرَأَى النِّسَاءُ ...  
 إِلَهِي  
 أَغْنِيَنِي  
 بِأَيِّ دُمُوعِ التَّمَّاسِيحِ آخِذُ فِيهَا الْعِزَاءُ ...؟!

(١٢)

تُعَلِّمُنَا الْأُمَّهَاتُ طِبَاعَ الدُّكُورِ  
 لِكَيْ لَا تَنْتَوِرَ الضَّغَائِنُ بَيْنَ الْكِبَارِ وَبَيْنَ الصِّغَارِ

ثُمَّ تُمْسِكُ رُوحِي بِخَيْرَةٍ ...

فَيَفْقِدُ دَمْعِي صَبْرَهُ ...

عَرَفْتُ - لِأَنِّي طُورِدْتُ حِينًا - مُعَانَاةَ أُمِّي الْفَقِيدَةَ ...

قَضَتْ عُمْرَهَا فِي الْهَمُومِ وَحِيدَةً ...

وَمَاتَتْ طَرِيدَةً ...!

(١٤)

إِذَا مَرِضَ اللَّيْلُ فَالصُّبْحُ قَدْ يَسْتَطِيعُ شِفَاءَهُ ...

وَإِنْ مَرِضَ الصُّبْحُ

فَاللَّيْلُ سَوْفَ يَزِيدُ عَنَاءَهُ ...

إِذَا مَا تَكَبَّرَ صُبْحٌ عَلَى اللَّيْلِ حِينًا بِفَضْلِ الْإِضَاءَةِ ...

فَكَيْفَ يَرُدُّ الْمَسَاءُ الْإِسَاءَةَ ؟

إِذَا مَا تَعَلَّمَ نُورُ الصَّبَاحِ الْبَدَاءَةَ ...

فَسَوْفَ يَظِلُّ الْمَسَاءُ مَلِيكًا لَهُ دَوْلَةٌ

ذَاتُ تَاجٍ

يَجْرُ عَلَيْهَا رِدَاءَهُ ...!

لَأَجْلِ الْأُمُورِ الصَّغِيرَةِ (كَالْأُمَّهَاتِ أَوْ الْأَخَوَاتِ!)

فَيَقْبَلُنَّ تَعْلِيمَنَا أَنَّنَا بِالذُّكُورَةِ أَقْوَى

وَأَنَّ الْقَوَامَةَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ جَاءَ لِكَيْ تَسْتَقِيمَ الْحَيَاةُ

وَإِنْ مَا سَأَلْنَا حُدُودَ الْقَوَامَةِ

تَحْكِي لَنَا قِصَّةَ الدُّثْبِ وَالْبِنْتِ

ثُمَّ كَبُرْنَا وَصِرْنَا ذُنَابًا ...!

(١٣)

تُطَارِدُنِي فِي مَسَائِي عِبْرَةٌ ...

فَأَرْكُضُ خَوْفًا (أَنَا فِي الْأَمَامِ)

وَأَرْكُضُ (فِي الْخَلْفِ أَبَدُ)

أُطَارِدُ فِكْرَةً ...

أُطَارِدُ فِكْرَةَ أَنِّي أُمَارِسُ صَلْبَ ضَمِيرِي

لِكَيْ أَتَطَهَّرَ عَبْرَ الْقَصِيدَةِ ...

يُطَاوِعُنِي السَّرْدُ حِينًا

وَحِينًا يَضِنُّ عَلَيَّ بِأَيِّ مَعَانٍ جَدِيدَةٍ ...

تُطَارِدُنِي عِبْرَةٌ



لَيْسَتْ تَلِيْقُ بِطَبْعِ الدُّكُورِ  
فَهُمْ - قَدَّرَ اللهُ - أَهْلُ الْقِيَادَةِ ...

سِلَاحُ النِّسَاءِ الدُّمُوعُ  
وَلَكِنْ

سِلَاحُ الدُّكُورِ التَّعَامِي عَنِ الدَّمْعِ بَلَلٌ فِي اللَّيْلِ  
تِلْكَ الْوَسَادَةُ ...

سِلَاحُ الدُّكُورِ التَّحْرُشُ - بِاسْمِ الرِّبَاطِ الْمُقَدَّسِ -  
بِالْأُمَّهَاتِ بَلِيلٌ

بُعِيدَ أَدَاءِ الْعِبَادَةِ ...

سِلَاحُ الدُّكُورِ التُّقُودُ لِكُلِّ مَلِيٍّ  
أَوْ الضَّرْبُ حِينًا

وَحِينًا بِهَجْرِ الْمُضَاجِعِ

أَوْ بِارْتِيَادِ الْمُضَاجِعِ ...!

حَقًّا أَصِيلاً لِكُلِّ الدُّكُورِ لِإِتْبَاتِ مَعْنَى السِّيَادَةِ ...

سِلَاحُ النِّسَاءِ الدُّمُوعُ

سِلَاحٌ لَهُ شَفَرَتَانِ

فَأَوَّلُهَا يَقْطَعُ الْبَاكِيَّاتِ

(١٥)

أُنَادِيكَ فِي الْقَبْرِ

صَوْتِي سَحَابٌ ...

فَتَسْقُطُ مِنْهُ الْحُرُوفُ كَغَيْثٍ

عَلَى صَفَحَاتِ كِتَابٍ ...

أُنَادِيكَ أَيْقُونَةً لِلنَّدَاءِ ...

وَبُئْرَةَ شَوْقٍ بِصَوْتِ الْحِدَاءِ ...

أُنَادِيكَ آيَةً دَمْعٍ بِسِفْرِ الْعَذَابِ ...

أُنَادِيكَ

كَيْفَ أَكْفَرُ عَنْ صَمْتِ صَوْتِي؟

وَإِنِّي أُنَادِيكَ فِي الْقَبْرِ صَوْتِي بُكَاءَ رَبَابٍ ...

سَأَزْرَعُ نَفْسِي كَشَاهِدِ قَبْرِ بِهَذَا التُّرَابِ ...!

(١٦)

رَفَضْتُ الدُّمُوعَ لِأَنَّ الدُّمُوعَ - كَمَا قَدْ قَرَأْتُ بِكُلِّ

نُصُوصِ الْقَبِيلَةِ -

فَهِيَ كَانَتْ مُؤَسَّسَةَ الْحُسْنِ فِي بَيْتِنَا  
وَهِيَ كَانَتْ جِهَازًا لِكَشْفِ الْخَبَائِثِ  
كَانَتْ رِدَاءَ الشِّتَاءِ  
وَنِسْمَةَ صَيْفِ

وَمِقْصَلَةَ الْيَأْسِ إِنْ دَبَّ يَأْسٌ بِأَيِّ الْمَسِيرَاتِ  
كَانَتْ ضَمَانَ النَّفُوقِ

مِبْرَدَ كُلِّ سَيْوِفِ السُّلَالَةِ ضِدَّ جَمِيعِ جُيُوشِ الْأَعَادِي  
وَمَا فَرَّقَتْ - حِينَ كَانَتْ تُمَشِّطُ شَعْرَ الْجَمِيعِ بِمَشْطِ مِنْ  
الْعَاجِ - بَيْنَ الذُّكُورِ  
وَبَيْنَ الْإِنَاثِ

سِوَى جَدَلِ بَعْضِ الضَّفَائِرِ كَيْ لَا تَصِيحَ الْإِنَاثُ !!!  
أَمْشِطُ شَعْرَ الْقَصِيدَةِ  
لَكِنْ

نَسِيتُ أَمْشِطُ شَعْرِي مِنْ بَعْدِ أُمِّي !

(١٩)

أُحَاوِلُ كَنْسَ تُرَابِ التَّقَالِيدِ مِنْ فَوْقِ بَهْوِ الذُّكُورَةِ  
كَيْ يَسْتَعِيدَ بَهَاءَهُ ...!

وَأَخْرُهَا لَيْسَ يُجْدِي  
لَأَنَّ الذُّكُورَ تَوَاجَهُهُ بِدُرُوعِ الْبِلَادَةِ ...  
لِذَلِكَ رَفَضْتُ الدُّمُوعَ  
لَأَنَّ دُمُوعِي تُصَنَّفُ ضِمْنَ دُمُوعِ الذُّكُورِ  
تُرَى هَلْ دُمُوعُ الذُّكُورِ سَعَادَةٌ ...؟

(١٧)

أُحْسُ بِأَنَّ الرَّجَالَ تَمَاتِيلُ عَمِيَاءُ  
لَا يُتَوَقَّعُ مِنْ مِثْلِهَا أَنْ يَرَى ...  
وَلَكِنَّهَا قَدْ تَرَى فِي النِّسَاءِ الَّذِي يُشْتَرَى ...!

(١٨)

أَمْشِطُ شَعْرَ الْقَصِيدَةِ وَالرِّيْحُ شَعْنَتِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي صُغِّتْهَا  
مِنْ خِلَالِ ثُقُوبِ الظَّلَامِ  
أَمْشِطُ شَعْرَ الْقَصِيدَةِ كَيْ أَتَذَكَّرُ أُمِّي الَّتِي مَشَّطَتْ  
شَعْرَ أَبْنَائِهَا فِي الطُّفُولَةِ  
مَا قَصَّرَتْ

سَتَهَيْفُ ضِدِّي ذُكُورُ السُّلَالَةِ حَتْمًا  
بِثُّهْمَةِ نَشْرِ الإِسَاءَةِ ...!

(٢٠)

يُكَبِّلُنِي الحُزْنَ فِي جِدْعِ جُمَيْزَةِ الهَمِّ بِالدُّكْرِيَّاتِ  
الَّتِي لَا تَمُدُّ يَدًا كَيْ تَمُكَّ قِيُودِي ...  
وَأَنْظُرُ حَوْلِي أَلْقَى مَوَاكِبَ دُنْيَا السَّعَادَةِ  
يُطْرِبُهَا لَحْنُ نَسِيَانِ نُدْيِ الأُمُومَةِ  
قَدْ طَالَ شَعْرِي  
وَطَالَتْ أَظْفَارُ كَفِّي  
وَالجِدْعُ لَا يَتَعَاظَفُ مَعَ مِجْنَتِي  
وَالقِيُودُ تُؤَكِّدُ قَبْضَتَهَا حَوْلَ خَصْرِي وَكَتْفِي  
وَتَرْفُضُ أَنْ تَرْتَجِي دُونَ أَنْ أَنْتَحِرَكَ نَحْوَ التَّحَرُّرِ  
وَالعِزْمُ فِي كُلِّ جِسْمِي انْكَسَرَ ...  
يُكَبِّلُنِي الحُزْنَ فِي جِدْعِ جُمَيْزَةِ الهَمِّ بِالدُّكْرِيَّاتِ  
كَنَعْمَةٍ فَرَحٍ يُجَمِّدُهَا الحُزْنُ فَوْقَ الوَتْرِ ...  
أَحْسُ بِفَرْحِي حَرَامًا عَلَيَّ  
لَأَنِّي ذَكَرْتُ ...!

أُحَاوِلُ تَعْرِيفَ ذَاتِي بِمَا قَدْ تَأَكَّدَ لِي رَأْيَ عَيْنٍ ...  
أُحَاوِلُ أَنْ أَتَمَثَّلَ مَعْنَى الرَّجُولَةِ مِنْ صَقْرِ شَارِبِ جَدِّي  
وَهُوَ - أَنَا أَقْصِدُ الصَّقَرَ - مَحْضُ افْتِرَاضٍ  
يُزِينُ صُورَةَ جَدِّي القَدِيمَةَ يَزْهُو بِهَا بِالعِبَاءَةِ ...  
لَقَدْ كَانَ جَدِّي زِينَةَ كُلِّ الرَّجَالِ  
فَتَارَ عَلَى الظُّلْمِ  
حَارَبَ ضِدَّ العُزْرَةِ  
كَمَا قَدْ رَوَتْ ضَرْبَةَ السَّيْفِ فِي جَبْهَةِ كَاللُّجَيْنِ ...  
أُحَاوِلُ حَصْرَ الفُرُوقِ العَدِيدَةِ بَيْنَ الرَّجَالِ وَبَيْنَ الدُّكُورِ  
وَبَيْنَ التَّسَامِي وَبَيْنَ الدَّنَاءَةِ ...  
أُحَاوِلُ تَصْحِيحَ مَعْنَى الرَّجُولَةِ عَبْرَ الزَّمَانِ  
كَتِمَثَالِ عَاجِ يَنَامُ عَلَى بِيضَتَيْنِ ...  
لَقَدْ كَانَ جَدِّي زَيْنَ الرَّجَالِ أَمَامَ جَمِيعِ الرَّجَالِ  
وَلَكِنَّهُ كَانَ يَبْدُو - بِرَغْمِ جَمِيعِ الفَضَائِلِ -  
رَبًّا تَحَكَّمَ فِي زَوْجَتَيْنِ ...  
وَمَعَ عَبَثِ الدَّهْرِ ضَاعَتْ فَضَائِلُ جَدِّي جِيلًا فَجِيلًا  
وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ شَوَارِبِهِ وَالعِبَاءَةُ ...!

(٢١)

أَيَا كُلِّ مَوْؤُودَةٍ فِي الثَّرَابِ بِكُلِّ عَصُورِ الْجَهَالَةِ  
لَا عَيْبَ أَنْ تُوَادِي  
إِنَّ بَعْضَ الْحَيَاةِ انْكِسَارٌ ...  
أَيَا كُلِّ مَقْتُولَةٍ بِاسْمِ سُوءِ السُّلُوكِ هَنِيئًا  
فَبَعْضُ الْمَمَاتِ انْتِصَارٌ ...  
أَيَا كُلِّ مَدْفُونَةٍ فِي الْبُيُوتِ بِتُهْمَةٍ تَقْصِرُ الْعُقُولِ اصْطِبَارًا  
فَبَعْضُ عُقُولِ النِّسَاءِ تُدِيرُ أُمُورَ الذُّكُورِ  
وَبَعْضُ الذُّكُورِ حِمَارٌ ...  
أَيَا كُلِّ مَضْرُوبَةٍ لَا بُكَاءَ  
فَذَنْبُ الْأُنُوثَةِ فَخْرٌ  
وَبَعْضُ الذُّكُورَةِ عَارٌ ...!

(٢٢)

فَوَادِي أَمَامَ الْجَمِيعِ اعْتَرَفٌ ...  
بِأَنَّ الْأُنُوثَةَ فَخْرٌ إِذَا اقْتَرَنْتِ بِالشَّرَفِ ...  
وَأَنَّ الذُّكُورَةَ سُمْ  
إِذَا مُزِجَتْ بِالصَّلْفِ ...!

(٢٣)

أُرَاسِلُ أُمِّي عَبْرَ بَرِيدِ الْمَنَامِ  
أَقُولُ لَهَا : هَلْ عَرَفْتَ السَّعَادَةَ؟  
تَهْتَفُ : بَعْدَ الْمَمَاتِ عَرَفْتُ ...!  
تُسَآئِلُنِي : هَلْ ذَرَفْتَ دُمُوعًا لِمَوْتِي؟  
فَأَصْرُخُ : بَلْ صِرْتُ دَمْعًا عَلَى حَدِّ هَذَا الزَّمَانِ انْدَرَفْتُ ...!  
أَسَآئِلُهَا : هَلْ تُرِيدِينَ شَيْئًا مِنَ الْبَيْتِ؟  
تَعْجَبُ ثُمَّ تُسَآئِلُنِي : هَلْ خَرَفْتُ؟  
أَقُولُ لَهَا : قَدْ غَدَوْتَ كَمَشْكَاةٍ حُلْمٍ تُبِيرُ الْحَقِيقَةَ  
تَبْسِمُ ثُمَّ تَقُولُ : أَجَدْتَ بِمَا قَدْ وَصَفْتُ ...  
أَقُولُ لَهَا : كُنْتُ نَهْرًا  
فَتَضْحَكُ حُزْنًا وَتَسْأَلُ : هَلْ أَنْتَ نَهْرٌ؟  
فَأَصْحُو مِنَ النَّوْمِ ثُمَّ أَقُولُ لَهَا :  
كُنْتُ نَهْرًا  
وَلَكِنْ جَفَفْتُ ...!

وَالْإِمَامُ يَصِفُ الصُّفُوفَ

وَيَسْرُحُ كَيْفَ تَكُونُ صَلَاةُ الْجِنَازَةِ

ثُمَّ يَكْبِرُ وَالنَّاسُ مِنْ خَلْفِهِ لَمْ تَزَلْ فِي الصَّلَاةِ بِأَجْسَادِهَا  
وَالْقُلُوبُ بَدَدٌ ...

تُرَاوِدُنِي زُرْقَةُ فِي جِبَاهِ الَّذِينَ يَمُوتُونَ

أَدْعُو إِلَهِي : "مَدَدٌ" ...

تُرَاوِدُنِي زُرْقَةُ الْوَرْدِ - وَرْدِ الْجَنَائِزِ - حِينَ صَلَاةِ الْجِنَازَةِ

أَدْعُو لِمَنْ مَاتَ بِالْوَرْدِ

ثُمَّ أَسِيرُ وَلَا أَفْتَقِدُ !...

(٢٦)

أَحَدٌ فِي الْبَدْرِ كَيْ أَسْتَعِيدَ طُمُوحَ اكْتِمَالِي ...

فَيُظْهِرُ لِي وَجْهَ أُمِّي ...

(٢٧)

تَوَلَّى النِّسَاءَ الْقِيَادَةَ ضِدَّ الطَّبِيعَةِ ...

سَبَّحَرِمُ أُمَّتَنَا مِنْ تَقَرُّدِهَا فِي الطَّبِيعَةِ ...

وَرَأَى النِّسَاءَ يُؤَشِّرُ نَحْوَ الْخَطِيبَةِ

(٢٤)

يُسَاوِرُ قَلْبِي الْيَقِينَ - وَبَعْضُ الْيَقِينَ وَلِيدُ الشُّكُوكِ -

بَأَنِّي غَفَرْتُ لِأُمِّي ذَنْبَ الْأُنُوثَةِ

ثُمَّ أَسِيرُ

لَتَتَّابَ قَلْبِي الشُّكُوكُ - وَبَعْضُ الشُّكُوكِ وَلِيدُ الْيَقِينَ -

بَأَنِّي غَفَرْتُ لِأُمِّي تَحْمَلُ سَوَاطِرَ الْمَظَالِمِ عَبْرَ السِّنِّينِ

فَيَنْتَبِهُ الْوَعْيُ - وَالْوَعْيُ زُورِقُ زُورٍ يُجَدِّفُ فِي نَهْرِ غَيْبُوبَةٍ -

كَيْفَ أَغْفِرُ ذَنْبَ الْأُنُوثَةِ وَالذَّنْبُ فَوْقَ احْتِمَالِ الذُّكُورَةِ؟

ثُمَّ أَسِيرُ بَغَيْبُوبَتِي - وَهِيَ كَهْلٌ يَسِيرُ يَغُوصُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ

بِوَحْلٍ مِنَ الْوَعْيِ -

حَتَّى أَفِيقَ لِأَدْرِكَ أَنَّ الْأُنُوثَةَ لَا تُغْفَرُ ...!

فَأَشْعُرُ أَنِّي وَسِمْتُ بِذَنْبِ الذِّكْرِ ...!

(٢٥)

تُرَاوِدُنِي زُرْقَةُ الْوَرْدِ - وَرْدِ الْجَنَائِزِ - فِي كُلِّ حِينٍ

قَبِيلَ - وَحِينًا بُعِيدَ - صَلَاةِ الْجِنَازَةِ

فِي مَسْجِدٍ قَدْ تَهَدَّمَ مِنْبَرُهُ

(٢٩)

تُوْبِحُنِي فِي الطُّفُولَةِ أُمِّي فَأَزْدَادُ قُوَّةً ...

وَتَنْهَرُنِي فِي الْفُتُوَّةِ عَنْ نَسْجِ حُلِيِّ الشَّبَابِ لِحُلِيِّ الصَّبَابِ  
فَيْشْتَدُّ عَوْدُ الْفُتُوَّةِ ...

تُعْذِّي سُلُوكِي بِطَبْعِ الذُّكُورِ - وَلَيْسَ بِطَبْعِ الرَّجَالِ -  
لَأَنَّ الذُّكُورَ قَدْ ائْتَمَرُوا عَنْ تَوَافِيهِ تَعْلِيمِ جِيلٍ جَدِيدٍ  
مَعَانِي الْمَرْوَةِ ...

تُلَقِّنُنِي أَنْ أَكُونَ - كَمَا كَانَ كُلُّ جُدُودِي - بِسَحْقِ  
الْأُنُوثَةِ قُدُوةً ...

تُبَرِّرُ أُمِّي سُلُوكَ الذُّكُورِ لِكَيْ لَا يُفَرِّقَ مَا بَيْنَ جِيلَيْنِ هُوَّةً ...  
وَبَعْضُ الْأَبُوَّةِ يَقْلَعُ جَذَرَ الْبُنُوَّةِ ...  
وَبَعْضُ الْأُمُومَةِ يَسْتُرُ عُرْيَ الْأَبُوَّةِ ...

(٣٠)

أَطَالِبُكُمْ بِالسُّكَّاتِ ...

سَتَشْرَبُ نَجْبَ الْعَطَاءِ عَلَى جُنْثِ الْأُمَّهَاتِ ...

مِنْ عَهْدِ آدَمَ

لَا تَتَّبِعُهُ

فَذَلِكَ ضِدُّ الرَّجُولَةِ

فَاحْذَرُ ...!

فَبَيْنَ الصَّوَابِ وَبَيْنَ النَّسَاءِ قَطِيعَةٌ ...

شُرُوطُ الْأُنُوثَةِ فِي كُلِّ شَهْرٍ تُحَدِّدُ عَقْلَ النَّسَاءِ

وَدِينُ النَّسَاءِ كَذَلِكَ - طَبِيقُ شُرُوطِ الْأُنُوثَةِ - يَنْقُصُ

فَاحْذَرُ مَشُورَتَهُنَّ الْفِطْرِيَّةَ ...

حَبَا اللَّهُ عَقْلَ الرَّجَالِ الْكَمَالَ

لِتَعْدُو النَّسَاءُ قَطِيعَةً ...

وَرَأْيُ الرَّجَالِ حَيَاةُ الْحَيَاةِ

لِذَلِكَ تَحْيَا الرَّجَالُ كَمَا يَنْبَغِي

وَتَمُوتُ النَّسَاءُ لِسَدِّ الدَّرِيْعَةِ ...

(٢٨)

يَعِيشُ الذُّكُورُ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَعِيشَ الرَّجَالُ وَلَيْسُوا رِجَالًا ...

تَمُوتُ النَّسَاءُ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَمُوتَ ...!

(٣١)

سَأَرْتَادُ فَوْقَ حِصَانِ الزَّمَانِ خَيَالَ الْمَكَانِ ...  
خَيَالُ الْمَكَانِ يَعْجُ بِكُلِّ احْتِيَاجَاتِ جِنْسِ الذُّكُورِ  
الذِّي لَمْ يَزَلْ مُطْلَقًا لِحِصَانِ الزَّمَانِ الْعَنَانِ ...  
على الجَسَدِ الْعَضِّ حَطَّ الْخَيَالُ  
وَمَا زَالَ يَنْهَشُ عُضْوًا فَعُضْوًا  
بِجِسْمِ النِّسَاءِ وَلَمْ يَلْقَ عُضْوَ الْحَنَانِ ...  
على الجَسَدِ الْبَضِّ سَيَطَّرَ عُرْفُ الذُّكُورَةِ  
لَكِنْ تَعَرَّبَ خَلْفَ الشُّعُورِ بِيَعُضِ الْأَمَانِ ...  
وَجُلُّ الذُّكُورِ يُدِينُ وَلَيْسَ يُدَانُ ...!  
وَجُلُّ الذُّكُورِ أَتَانُ ...!  
وَجُلُّ الذُّكُورِ مُرَادِفُهُ خِصِيَّتَانُ ...!  
وَجُلُّ النِّسَاءِ - بِفِعْلِ الذُّكُورِ - بُكَاءُ كَمَا نُو ...  
وَجُلُّ النِّسَاءِ - لِأَجْلِ الذُّكُورِ - تَمُوتُ بِلَيْلَةِ عَقْدِ الْقِرَانِ ...  
وَجُلُّ النِّسَاءِ - بِأَمْرِ الذُّكُورِ - تَمُوتُ وَلَيْسَ تَمُوتُ  
بِيَوْمِ الْخِتَانِ ...!

(٣٢)

وَتَرْوِيحُ كُلِّ النِّسَاءِ لَقَدْ صَارَ عُرْفًا ...  
كَمَنْفَى بِدَاخِلِ مَنْفَى ...!

(٣٣)

مَسَارُ الرُّوَايَةِ لَا يَسْتَجِيبُ ...  
فِيهِدِرُ زَهْنُ الْأَدِيبِ ...  
مَسَارُ الْحَقِيقَةِ لَا يَسْتَجِيبُ ...  
فِيهِدِرُ عَقْلُ الْأَرِيبِ ...  
نُعْنِي نَشِيدَ الْخُصُوبَةِ فِي اللَّيْلِ  
لَكِنْ تَرُدُّ النِّسَاءُ نَشِيدَ النَّحِيبِ ...  
على آلَةِ الْجِنْسِ نَعَزْفُ عَزْفَ انْفِرَادٍ سَرِيعٍ بَلِيلٍ  
وَفِي الصُّبْحِ تُنْسَجُ كُلُّ الْأَسَاطِيرِ فِي مَجْلِسِ لِلذُّكُورِ  
وَلَكِنْ  
مَسَارُ الرُّوَايَةِ  
أَعْنِي

تَوَجَّعَ لِنَفْسِكَ لَا الْآخِرِينَ ...

وَلَا تَتَذَكَّرُ سِوَى الْحَاضِرِينَ ...

وَلَا تَتَوَقَّعُ - إِذَا مَا رَحَلْتَ - دُمُوعًا تُجَاوِزُ حَدَّ

مَرَّاسِمِ دَفْنِكَ - أَنْتَ الْفَقِيدُ -

فَمَنْ سَوْفَ يَبْكِيكَ بَعْدَ انْصِرَافِ الْمُعَزِّينَ (فَوْرًا!)؟

لَيْسَتَانِيفُوا فَرَحَهُمْ غَيْرُ أُمَّكَ؟

وَأُمَّكَ مَا تَتَّ ...!

(٣٦)

سَابِدًا سَرَدَ الْحِكَايَةَ - لَا مِثْلَمَا عَشْتُهُا -

إِنَّمَا مِثْلَمَا كَانَ تَرْجِيحُ حُسْنِ الظُّنُونِ ...

سَابِدًا سَرَدَ الْحِكَايَةَ مِنْ دُونِ حَصْرِ الضَّحَايَا ...

وَمِنْ دُونِ تَحْرِيزِ دَمْعِ الْعُيُونِ ...

أَنْتَ لِلْحَيَاةِ فَتَاةٌ - غَدَتْ بَعْدَ ذَلِكَ أُمَّا -

فَعَاشَتْ حَيَاةَ الْكِرَامِ

كَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونُ ...

فَلَمْ يَتَسَلَّطْ عَلَيْهَا الذُّكُورُ - أَبَا أَوْ أَحَا أَوْ ... إِلْحُ -

وَلَمْ يَتَكَرَّرْ لَفَيْضِ عَطَاهَا الْبُنُونُ ...

مَسَارَ الْحَقِيقَةِ

لَا يَسْتَجِيبُ ...!

(٣٤)

لَأَيِّ جِدَارٍ يَسِيرُ قِطَارُ الْكِتَابَةِ؟

وَفِي أَيِّ أَرْضٍ سَيَسْقُطُ دَمْعُ السَّحَابَةِ؟

سُؤَالٌ وَحِيدٌ

لَهُ أَلْفُ أَلْفِ إِبَابَةٍ ...!

(٣٥)

تَأَلَّمَ عَلَى هَامِشِ الْعُمْرِ

وَاتْرَكَ مَثُونَ الْحَيَاةِ بِدُونِ التَّأَلُّمِ

كَيْ تَسْتَزِيدَ مِنَ الْفَرْحِ

لَا تَسْتَجِيبُ لِلدُّمُوعِ ...!

فَلَا الدَّمْعُ يُلْغِي رَحِيلَ الَّذِينَ تُحِبُّ

وَلَا الْفَرْحُ يُثَبِّتُ جُرْمَ احْتِقَارِكَ لِلْآخِرِينَ

وَلَا الْآخَرُونَ يُرِيدُونَ حُرْنَكَ (إِلَّا إِذَا ارْتَحَلُوا)

وَالرَّحِيلُ سَيَمْنَعُ عَنْكَ مَلَامَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ مِنْكَ التَّأَلُّمَ

فَافْرَحْ ...!



قَضَتْ عُمْرَهَا فِي عَطَاءٍ وَأَخَذِ...!

فَلا هِيَ تُعْطِي بِدُونِ حِسَابِ

وَلا هِيَ تَنْسَى تُعَارِكَ مِنْ أَجْلِ مَا يَغْنَمُونَ ...

وَعَاشَتْ - كَمَا يُتَوَقَّعُ - أُمَّاً تُعِينُ أَباً

حَاضِراً فِي الشَّدَائِدِ

يَعْشَقُ إِرْضَاءَهَا

لَيْسَ يَقْبَلُ إِهْمَالَهَا

ثُمَّ فِي آخِرِ الْعُمُرِ قَدْ أُكْرِمَتْ مِنْ جَمِيعِ شُيُوخِ الْقَبِيلَةِ طُرّاً

وَذَلِكَ أَقْلُ أَدَاءٍ لِتِلْكَ الدُّيُونِ ...

فَلا هِيَ مَاتَتْ بِأَحْزَانِهَا ...

وَلا هُمْ كَذَا يَحْزَنُونَ...!

(٣٧)

يَرْبِّكَ يَا مَنْ عَقَلُ

أَهْلُ يَتَسَاوَى ...؟

نِسَاءً بِصَبْرِ الْجَمَلِ

وَشِبْهُ رِجَالٍ بِطَبَعِ ابْنِ آوَى ...؟

(٣٨)

تُرَى هَلْ سَأَقْدِرُ يَوْمًا بِفَرْحِ ضَيْئِلٍ عَلَى سَدِّ مَجْرَى الدُّمُوعِ؟

يُدَانُ سِوَايَ بِلَعْنِ الظَّلَامِ

وَإِنِّي أَدَانُ بِإِيقَادِ ضَوْءِ الشُّمُوعِ ...!

أَنَا سَيِّدُ الْحُزْنِ حِينَ تَذَكَّرُ أُمِّي

وَلَسْتُ بِنَاسِي الرِّحِيلِ

وَلَسْتُ بِمُنْتَظِرٍ لِلرُّجُوعِ ...

تُرَى هَلْ سَأَقْدِرُ أَنْ أَتَنْفَسَ وَالْحُزْنَ يَمَلَأُ مِنِّي الرِّئَةَ ...؟

أَنَا مَنْ لَعَنْتُ الْمَدَانَ (الْبَرِيءَ)

- وَكَانَ دَلِيلُ الْبِرَاءَةِ فِي خَصِيَّتِيهِ -

وَأَشْرَكَتُ فِي اللَّعْنِ مَنْ بَرَّاهُ ...

أَعِيشُ زَمَانِي مَا أَسْوَأَهُ ...

وَتَهْلِكُ جُلُّ النِّسَاءِ بِذَنْبِ امْرَأَةٍ ...!

(٣٩)

يُحَاوِرُنِي طَيْفٌ مَحْبُوبَةٌ فِي الظَّلَامِ لَهَا وَجْهُ أُمِّي

لِذَلِكَ مَا زِلْتُ مُسْتَدْرِجًا طَيْفَهَا

وَلَا أَخَذَ أَيَّ إِجَازَةٍ فَرَّحَ مِنَ الْحُزْنِ  
لَا أَسْتَسِيغُ الْخُرُوجَ سِوَى كَيْ أَزُورَ مَنَاطِقَ حُزْنٍ  
أُرِيدُ تَكْشِفُهَا رَغْمَ بَعْدِ الْمَسَافَةِ  
مَا بَيْنَ حُزْنِي وَحُزْنِ الْجَمِيعِ  
لَأَنِّي تَحَوَّلْتُ حُزْنًا بِكَفَيْهِ مَسْبِحَةٌ  
بَاتَ يَلْهَجُ فِي ذِكْرِهِ  
بِاسْمِ أُمِّي ...!

(٤٢)

أَنَا لَا أَهَابُ السُّؤَالَ وَلَكِنْ  
مَلَّتْ اتِّحَارَ الإِجَابَاتِ دَوْمًا عَلَى شَفْرَةِ الأَسْئَلَةِ ...  
أَجَبْتُ - بِشَتَّى الْمَنَاهِجِ - عَمَّا يُورِقُ عَقْلِي  
مَا بَيْنَ مَسْقَطِ رَأْسِي عِنْدَ الْوِلَادَةِ طِفْلًا  
وَمَا بَيْنَ مَسْقَطِ رَأْسِي بِالْمَقْصَلَةِ ...  
تَحَيَّرْتُ لِلْحُبِّ  
وَالكُرْهُ يَجْمَعُ مِنْ خَلْفِهِ كُلَّ مَنْ يَرْتَضُونَ الْغَنَائِمَ  
- كَانُوا ذُكُورًا -  
كَجَيْشٍ يُعْرِدُ فِي مَقْتَلَةٍ ...

كَلَّمَا حَانَ وَقْتُ الْخِصَامِ الَّذِي لَا يُرِيدُ الرَّحِيلَ  
لِيَأْتِيَ وَقْتُ الصَّفَاءِ  
وَلَسْتُ أَرَانِي بِهَا زَاهِدًا  
- قَدْ قَصَدْتُ الطُّيُوفَ -  
وَأِنِّي مَلَّتُ ارْتِيَادَ الْخِيَالِ  
وَتَرَكَيْتُ مَعْشُوقَةً فِي الظَّلَامِ لَهَا وَجْهَ أُمِّي ...  
لِذَلِكَ قَرَّرْتُ هَجْرَ جَمِيعِ طُيُوفِ النِّسَاءِ ...  
سِوَى طَيْفِ أُمِّي ...!

(٤٠)

عَشِقْتُ الْغِنَاءَ لِأَنِّي ارْتَوَيْتُ بِتَغْرِيدِ أُمِّي : "نَامَ" ...!  
عَلَى شَفَتَيْهَا السَّلَامَ ...  
عَلَى سَائِرِ الأُمَّهَاتِ السَّلَامَ ...  
عَلَى رَاحِلِ الأُمَّهَاتِ السَّلَامَ ...!

(٤١)

تُفَاجِيءُ بَعْضُ دَوَاعِي السُّرُورِ بِرَامِجِ حُزْنِي الْمُقِيمِ  
فَلَا أَسْتَجِيبُ بِتَأْجِيلٍ بِنْدِ بُكَاءٍ  
وَلَا رَفْضِ دَعْوَةِ دَمْعٍ

لَذَلِكَ أَلْفَيْتُ نَفْسِي صُحْبَةَ رَكْبِ النِّسَاءِ  
أَسِيرًا عَلَى مَرْكَبٍ لِلْعَبِيدِ  
أُعَانِي بِقَبْوٍ - وَهَنْ يُعَانِينِ أَيْضًا -  
جُمُوحَ الدُّكُورِ  
الَّذِينَ يُعَانُونَ - أَيْضًا -  
جُمُوحَ الْبَلَهْ ...  
وَمَا زِلْتُ أَسْأَلُ نَفْسِي

لِمَاذَا تَمُوتُ النِّسَاءُ بِقَبْوِ الْعَبِيدِ؟  
وَمَا ظَلَمَ الدُّكُورُ النِّسَاءَ تُرَى رَبُّنَا أَنْزَلَهُ؟  
تَمُوتُ الْإِجَابَاتُ دَوْمًا عَلَى شَفْرَةِ الْأَسْئَلَةِ!

(٤٣)

تَوَاطَأْتُ مَعَ طَيْفِ أُمِّي ...  
فَأَثْرُكُهُ فِي الْمَسَاءِ يَزُورُ مَنَامِي لِئَسْيَانِ هَمِّي ...  
وَيَثْرُكُنِي فِي الصَّبَاحِ أَحَدِّقُ فِيهِ لِأَطْرَحَ غَمِّي ...!

(٤٤)

تُدَاهِمُنِي رَغْبَتِي فِي الْبُكَاءِ وَلَسْتُ أُطِيعُ ...  
وَتَسْقُطُ أَوْرَاقُ أَشْجَارِ حَقْلِي رَغَمَ الرَّبِيعِ ...

عَلَيَّ وَوَحْدِي تَقُومُ الْقِيَامَةُ ...!  
أَنَا مَنْ يُسَيِّرُ بِالشَّعْرِ رَكْبَ النُّجُومِ - إِذَا مَا أَرَادَ - أَمَامَهُ ...  
تُرَاوِدُنِي رَغْبَتِي فِي الْبُكَاءِ فَلَا أَسْتَطِيعُ ...  
فِيُطَلِّقُ شِعْرِي سِهَامَهُ ...  
فَأَبْكِي بِدَمْعِ الْحُرُوفِ أَمَامَ الْجَمِيعِ ...!

(٤٥)

وَيَجْنَحُ لِلسَّلْمِ جُلُّ النِّسَاءِ  
وَطَبَعُ الدُّكُورِ ادِّعَاءٌ بِهَدْنَةٍ ...  
يُفَاجِئُ قَصْفُ الدُّكُورِ النِّسَاءَ  
فَتَلْقَى الضَّحَايَا (النِّسَاءَ)  
وَتَقَالَةَ الْمُسْعِفِينَ (الدُّكُورِ!)  
تُمَارِسُ دَوْرًا سَخِيفًا تَقَرَّرَ مِنْ أَجْلِ تَفْرِيفِ شُحْنَةٍ ...  
تَلُوحُ النِّسَاءُ كَسِرْبِ طُيُورٍ عَلَى الْغُصْنِ  
ثُمَّ تَجِيءُ الدُّكُورُ لِتَقْطَعَ غُصْنَهُ ...  
تَجُودُ النِّسَاءُ بِمِنْحَةِ حُبٍّ  
وَدَوْمًا تَرُدُّ الدُّكُورُ بِمِحْنَةٍ ...  
وَعِنْدَ الدُّكُورِ الْقَبِيحَةِ مَذْمُومَةٌ

والجميلة فنتة ...  
كانَّ الذُّكُورَةَ طَهْرًا لِمَنْ حَازَهَا  
أَوْ كَانََّ الْأُنُوثَةَ لَعْنَةً ...!!!

(٤٦)

وناري بصدري تُحاولُ بالشَّعْرِ نَفْتًا ...  
ومن يمدح الرَّاحِلَاتِ يَحُثُّ الوُقُوفَ بِوَجْهِ التَّقَالِيدِ حَتَّى ...  
أحبُّكِ أُمِّي  
حياةً  
وموتًا  
وبعثًا ...  
ومثلكَ لَيْسَ يَمُوتُ  
ولكنَّهُ سَوْفَ يُرْتَى ...  
سأرتني النَّساءَ جَمِيعًا  
لأنَّكِ أُنْتِ ...!

(٤٧)

وكيفَ سأُدرِكُ بَعْضَ ارْتِيَاخِ؟  
أنا المتفرِّدُ في نَظَرَتِي لِلأُمُورِ

كجذع  
بنفسِ الجُدُورِ  
ونفسِ اللِّحاءِ  
ونفسِ الغُصُونِ  
يُفاجأُ في كُلِّ يَوْمٍ بِجِيلٍ جَدِيدٍ يُعْرِيدُ مِنْ عَاتِيَاتِ الرِّيحِ ...!  
أنا مَنْ تَنَزَّهَ حُزْنِي عَنِ الفَرْحِ  
حَتَّى غَدَا الفَرْحُ غَيْرَ مُتَّاحٍ ...  
أنا مَنْ سَلَا أَنْ سَلُواتِهِ وَقَعَ فِي حُدُودِ المَبَاحِ ...  
أنا مَنْ تَشَكَّلَ حُزْنِي فَأَمْسَى لَهُ أَلْفُ وَجْهِ  
فحينًا يَجِيءُ بِوَجْهِ الجَوَّارِي المَلَّاحِ ...  
وحيثما بِوَجْهِ المَسَاءِ  
وحيثما بِوَجْهِ البُيُوتِ  
وحيثما بِوَجْهِ السَّحَابِ  
وحيثما بِوَجْهِ غَرِيبٍ تَشَكَّلَ مِنْ خَالِدَاتِ الجِرَاحِ ...  
تَكَرَّرَ حُزْنِي بِحُزْنٍ وَحِيدٍ  
كَأَنَّي أَطالِعُ نَعِيًّا لِأُمِّي عَلى صَفْحَةِ الوَفِيَّاتِ بِكُلِّ صَبَاحٍ ...!

سَأَنْطِقُ بِالْحَقِّ دُونَ مَجَازٍ

فَلَيْسَ لَهُ مَنْ بَدِيلُ ...

رَحِيلُ كَثِيرٍ مِنَ الْأُمَّهَاتِ جَرِيمَةٌ قَتْلٍ

وَتَمَّتْ لِعَجْزِ الْقَتِيلِ ...

وَمَرَّتْ بِصَمْتِ الشُّهُودِ

وَطَمَسِ الدَّلِيلُ ...!

(٤٨)

وَمَذْهَبُ جُلِّ النِّسَاءِ الرِّضَا بِالْفُتَاتِ ...

لَكَيْ يَتَحَوَّلَ مَجْرَى الثَّرَاءِ إِلَى أُخْرِيَاتٍ ...!

(٤٩)

يُحَاصِرُنِي الْحُزْنَ بَعْدَ الرَّحِيلِ ...

أُحَاوِلُ تَصْوِيرَ شَوْقِي لِأُمِّي بِشِعْرِ أَصِيلٍ ...

فَأَكْتُبُ :

"إِنَّ رَحِيلَكَ أُمِّي كَلِيلٌ طَوِيلٌ طَوِيلٌ"

وَأَشْطَبُ مَا قَدْ كَتَبْتُ ...!

فَذَلِكَ مُسْتَهْلِكٌ

لَا يُعْبَرُ عَنْ حَسْرَةِ الْحُلْمِ فِي يَقْظَةِ الْمُسْتَحِيلِ ...!

فَأَكْتُبُ :

"إِنَّ رَحِيلَكَ أُمِّي كَهَجْرِ الْحِصَانِ الصَّهِيلِ"

وَأَشْطَبُ مَا قَدْ كَتَبْتُ

لَأَنَّ الْخِيَالَ يُزَوِّرُ حَجْمَ الْفَجِيعَةِ

بَلْ قَدْ يُدَلِّسُ فِي وَصْفِ أَمْرٍ جَلِيلٍ ...

(٥٠)

لَأَجْلِكَ أُمِّي أَضْحِي بِشُحِّي ...

وَلَسْتُ أَضْحِي بِشُحِّ ...

(٥١)

يُرَاقِبُنِي طَيْفُ أُمِّي الَّذِي لَمْ يَزَلْ شَكْلُهُ بَيْنَ سِنِّ الثَّلَاثِينَ

وَالْأَرْبَعِينَ

الَّذِي فِيهِ قَدْ أَنْجَبْتَنِي ...

عَلَى نَفْسِ صُورَتِهَا فِي الشَّبَابِ بِحُلْمِي أَتَّنِي ...

تُرَى هَلْ يُرَاقِبُنِي طَيْفُهَا ...؟

وَهُوَ يُشَكِّلُ جُزْءًا لِكُلِّ وَكُلًّا لِحُزْنٍ  
كَطَعْمِ الحُمُوضَةِ فِي لَسَعِ لَيْمُونَةٍ  
أَوْ كَطَعْمِ السَّعَادَةِ بِالْحُبِّ  
أَوْ مِثْلِ مَزْجِ اصْفِرَارٍ عَلَى زُرْقَةٍ كَيْ تُكُونَ مِنْ مَزْجِهَا  
حُضْرَةً

فَالْتِقَامُ تُغُورِ الصِّغَارِ لِأَتْدَاءِ تِلْكَ النِّسَاءِ  
يُحَقِّقُ مَعْنَى  
لَهُ أَلْفٌ مَعْنَى

وَمَعْنَى امْتِزَاجِ المَعَانِي بِلِحْظَةِ لَقْمِي لِتَدْيِكِ أُمِّي  
يُفِيدُ بِأَنِّي فَقَدْتُ أُلُوفَ المَعَانِي  
بِفُقْدَانِ أُمِّي ...!

(٥٣)

عَلَى حَلْمَةِ التَّدْيِ يَهْبِطُ تُغْرُ الرِّضِيعِ يُنْبَهُ وَعِي الحَوَاسِ ...  
فَيُصْبِحُ كُلُّ الطَّعَامِ وَكُلُّ الشَّرَابِ فُرُوعًا  
وَيَبْقَى الحَلِيبُ الأَسَاسُ ...  
تَنَقَّلْتُ مِثْلَ الفِرَاشَةِ مَا بَيْنَ أَتْدَاءِ تِلْكَ النِّسَاءِ

أَوْ تُرَانِي يُوهِمُ القَصِيدَةَ أَسْبَحُ ؟  
أَوْ ذِكْرِيَاتِ الطُّفُولَةِ قَدْ أَثْقَلْتَنِي ؟  
أَنَا مَنْ تَأَلَّمْتُ مِنْذُ ابْتِدَاءِ الكِتَابَةِ مَا بَيْنَ شَرْحٍ وَمَثْنٍ ...  
أَنَا مَنْ تَشَرَّدَ بَيْنَ النِّسَاءِ حَيْنًا لِمَنْ أَرْضَعْتَنِي ...!

(٥٢)

وَمِنْ تَدْيِ أُمِّي رَضَعْتُ  
وَمَعْنَى الرِّضَاعَةِ حَرْفٌ يُعَانِقُ حَرْفًا  
وَحَرْفًا  
وَحَرْفًا  
لِيُصْبِحَ مَعْنَى  
وَمَعْنَى  
وَمَعْنَى ...!

وَمَعْنَى الرِّضَاعَةِ مَعْنَى تَرَكَبَ مِنْ أَلْفِ مَعْنَى  
وَمَعْنَى الرِّضَاعَةِ يَعْنِي زِرَاعَةَ بَدْرَةَ مَعْنَى بِأَرْضِ الطُّفُولَةِ  
(وَهِيَ تُخَصَّبُ عَبْرَ الحَلِيبِ)  
فِيكْبُرُ فِي الطِّفْلِ مَعْنَى الأُمُومَةِ

(٥٥)

صَبَاحُ جَمِيلٌ كَكَيْبٍ ...

جَمِيلٌ بِمَا فِيهِ

لَكِنْ

كَكَيْبٍ بِمَا فِيَّ

قَرَّرْتُ أَرْسُمُ أُمِّي

فَحَوَّلْتُ أَفْقِي فَمَا شَأْ

وَأَحْضَرْتُ قَوْسَ قَرْحٍ ...

وَحَدَدْتُ مَنْظُورَ لَوْحَةِ أُمِّي وَالْوَانِهَا

سَوْفَ أَرْسُمُهَا وَهِيَ تَبْسِمُ لِي فِي فَرْحٍ ...

وَمَنْظُورُهَا مُسْتَوٍ

بَارْتِفَاعِ عِيُونِ الصَّغَارِ

وَتَلْبَسُ شَالًا مِنَ الْقُطْنِ

فِيهِ اخْضِرَّارُ النَّخِيلِ

وَفِيهِ اصْفِرَّارُ الْبَلْحِ ...

تَوَالَتْ حُطَى اللَّوْنِ فَوْقَ الْقَمَاشِ

وَكَفِّي عَبْرَ اللَّيَالِي تَدْوُونُ حَطًّا

أَبَيْتُ عَلَى تَدْيِي "دِينَا"

وَأَمْرَحُ فِي تَدْيِي "لُبْنَى"

وَأَمْخُرُ أَثْدَاءَ "سَلْمَى"

وَأَرْتَعُ فِي تَدْيِي "سَالِي"

وَأَسْبِخُ فِي تَدْيِي "لَيْلَى"

وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُنَامَ عَلَى تَدْيِي أُثْنَى

سِوَى تَدْيِي أُمِّي ...!

لَأَنْتِي عَلَى تَدْيِي أُمِّي عَرَفْتُ النُّعَاسَ ...!

قَصِيدَةَ تَدْيِي الْأُمُومَةِ أَصْلٌ

وَأَثْدَاءُ كُلِّ النِّسَاءِ اقْتِبَاسٌ ...!

وَتَدْيُكَ أُمِّي أَصْلٌ تَعَدَّرَ يَجْرِي عَلَيْهِ الْقِيَاسُ ...!

(٥٤)

أَنَا الْأَرْضُ تُسْقَى حَلِيبًا

وَتَدْيُكَ صَارَ الْغَمَامُ ...

وَحِينَ رَحَلْتِ

وَصَلْتِ لِسِنَّ الْفِطَامِ ...!

فَخَطًّا  
فَخَطًّا  
كَزْرُكَشَةٍ فِي رِدَاءٍ ...  
وَحِينَ انْتَهَيْتُ  
وَجَدْتُ أَمَامِي السَّمَاءَ ...!  
هِيَ الْفَوْقُ لَا فَوْقَ مِنْ فَوْقِهَا ...  
وَهِيَ حِينَ التَّنَاءِ  
تَنَاءُ التَّنَاءِ ...  
وَحِينَ الْعَطَاءِ  
عَطَاءُ الْعَطَاءِ ...  
وَحِينَ الدُّعَاءِ  
مُجَابُ الدُّعَاءِ ...  
وَحِينَ الْفِرَاقِ الْلِقَاءِ ...  
وَحِينَ الظَّلَامِ الضِّيَاءِ ...  
أَنَا الْأَرْضُ  
أُمِّي السَّمَاءُ ...  
وَمَا زِلْتُ أَمَلُ مِنْكَ الْإِنَاءَ ...

وَمَا زِلْتُ تَحْتُ جَنَاحِكَ أُمِّي  
كَأَرْضٍ تُرَوَّى بِأَعْدَبِ مَاءٍ ...  
وَمَا زِلْتُ أَشْكُرُ أُنْكَ أُمِّي  
وَمَا زِلْتُ أَشْكُرُ أُنْكَ لَمْ تَسْتَسِيغِي الرَّحِيلَ  
وَأَنِّي حِينَ رَتَيْتُكَ  
لَمْ تَسْتَسِيغِي الرَّثَاءَ ...  
لِذَلِكَ حِينَ رَحَلْتُ  
رَتَيْتُ جَمِيعَ النُّسَاءِ ...!

ديسمبر/ ٢٠٠٧

بدأت وتمت في القاهرة



